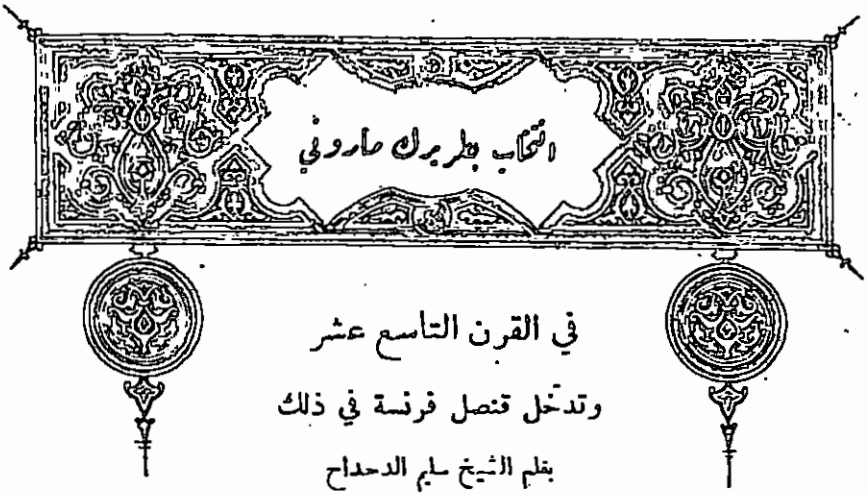

في القرن التاسع عشر

وتدخل قنصل فرنسة في ذلك

بقلم الشيخ سليم الدحداح

١

عطفاً على مقال سبق نشره في مشرق شباط المنصرم ، نقول ان المسيو اوجين پوجاد انتظم في سلك مأموريات الوزارة الخارجية الافرنسية ، وتولى بضع سنوات اعمال القنصلية الفرنسوية العامة في بيروت ، وذلك بعد خروج الجيوش المصرية من لبنان وسورية وعودة بلادنا تحت الحكم العثماني.

ولا يجهل احد كم كان عظيماً ونافعاً للمصلحة العثمانية قيام اللبنانيين ضد اميرهم ، الامير بشير الشهابي الكبير ، وحلفائه المصريين . وقد كانت ثورتهم بايعاز وتنشيط البطريرك يوسف حبيش ، فسهلت نزول الجيوش العثمانية في جونية ، وساعدت عمل الاسطول الانكليزي . فكانت مكافأة اللبنانيين من قبل تركية وانكلترة ان اتحد رجال هاتين الدولتين على خرابهم والغاء استقلالهم والعمل على ايقاع الشرر بهم : اما تركية فكانت تتعمد الغاء استقلال هذا الجبل وامتيازات امرائه ومشايخه ووضعه ، مثل الاراضي المجاورة له ، تحت حكمها المباشر . وكانت انكلترة تساعدها على ذلك نكاية بالموارنة الذين رفضوا قبول حمايتها التي عرضتها عليهم . وفي ذاك الوقت ، اي من سنة ١٨٤٠ يوم خروج المصريين من سورية حتى بداية حرب القريم سنة ١٨٥٣ ، كانت تركية مستسلمة تمام الاستسلام لارادة انكلترة خاصة في ما يتعلق بشؤون سورية . حتى ان انكلترة كانت عينت في بيروت مأموراً سياسياً وخولته

سلطة اكبر من سلطة القنصل العام ليشرف على اعمال السياسة في سورية[1] . ومتى عرف القارئ الكريم ان ممثلي النمسة كانوا — بحسب تعليمات البرنس دي مترنيخ — يوافقون على ما يريده قناصل انكلترة وان ممثلي بروسية لم يكونوا يكترثون لما يجري في سورية فضلاً عن ان دولتهم لم يكن لها شأن في السياسة الكونية ، تبيّن له عظم نفوذ قناصل انكلترة ؛ اذ لم يبقَ امامهم سوى قناصل روسية ، وقناصل فرنسة . فهؤلاء لم يكونوا منقادين لقناصل انكلترة ، انما عدم اتفاقهم بعضهم مع البعض جعل البريطانيين اقوى منهم واكثر نفوذاً .

فالقناصل الروس ما كانوا ليهتموا كثيراً بالموارنة ومصالحهم حتى يعضدوا دائماً قناصل فرنسة ، انما كان ميلهم الغريزي يبعدهم عن الانكليز فيقتربون احياناً كثيرة من سياسة القناصل الفرنسويين . وفي غالب الاحيان كانوا يقفون موقف الحياد بين الفريقين ويقترحون اقتراحات من شأنها التوفيق بين نظريتيهم المتعاكستين . وعليه كان قناصل فرنسة وحدهم ينفردون بالمدافعة اشدّ الدفاع عن قضية الموارنة ، وعن حقوق جميع المرسلين الكاثوليك من اي تابعية كانوا . ومعلوم ان الولاة العثمانيين كانوا مشهورين بالخداع والمراوغة ، ويشددهم قناصل الانكليز في خطتهم . ولما كانوا لا يخافون الا القوة ، كانوا يزدادون تمسكاً بخطتهم عند مشاهدتهم الاساطيل الانكليزية تملأ البحار . فترى من هنا كم كان صعباً وحرجاً مركز القناصل الفرنسويين ولاسيما في تلك المدة التي كانت ترتكز فيها سياسة الملك لويس فيليب على الاتفاق الودّي مع انكلترة ، وتجنب المشاكل الدولية ، حتى ولو كان في ذلك الحطّ من نفوذ فرنسة .

لكنّ الرجل الذي تربى على عزة النفس ، والوطني الحريص على شرف

---

١) هذا المشد هو هنري روز . كان ضابطاً في الجيش الانكليزي البري ، ويُعرف في تاريخ سورية باسم الكولونيل روز . وقد اشتهر بعد ذلك في حرب القرم . ثم قمع ثورة الهند الطيمة في سنة ١٨٥٧ ، وتولى في سنة ١٨٦٠ قيادة الجيوش الانكليزية العامة في الهند . وفي سنة ١٨٦٦ ، دخل مجلس النبلاء باسم « البارون سراتنارن » . وتولى قيادة الجيش العامة في ارلندة حيث قمع ثورة « الفنيان » في سنتي ١٨٦٦ و١٨٦٧ . واخيراً توفي في باريس عن ٨٦ عاماً في سنة ١٨٨٥ ، بعد ان حصل على رتبة فلد مارشال .

علمه وبلاده ، يبقى جسوراً ولا يمكنه تغيير عاداته مهما خفت سياسة رؤسائه. وقد اشتهر پوجاد مدة وكالته بالجسارة والشهامة مع المرونة والسياسة. ويكفيك ان تعلم انه ، مع وجود شكيب افندي ، وزير خارجية تركية ، مندوباً سامياً في لبنان وسورية ، وعند مراوغة والي ايالة صيدا وسرعسكر الجيوش العثمانية ، ارسل پوجاد ، باسره الخاص ، قطعة حربية افرنسية الى مياه جونية فانزلت عدداً من بحارتها الى البر ، واستخلصت ترجمانه خليل المدوّر من ايدي العساكر الاتراك بعد ان ولوا الادبار مع قائدهم ابرهيم باشا[1]. وقد امتدحه الكونت دي مونتالمبر في ندوة النبلاء وطلب من رئيس الوزارة الا يكون هذا المديح الصادر من فم رؤساء المعارضة سبباً لغيظ الحكومة منه. فأكد له رئيس الوزارة انهم يمدحونه على هذا العمل الذي فيه حفظ كرامة فرنسة ، وسيكافؤونه بعد ذلك.

* * *

في مدة وجود هذا الرجل في بيروت ، حدثت ازمة بطريركية مارونية ، وحكمت الظروف بتدخله . وقد كان لهذا التدخل نتيجة حسنة جداً . وهو موضوع كلامنا الآن.

ان هذا الرجل ، اي القنصل پوجاد ، وضع في سنة ١٨٦٠ تأليفاً دعاه « لبنان وسورية بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٦٠ » ، قسمه الى ثلاثة اقسام. عنوان القسم الاول « مأموريتي في سورية » ، وعنوان القسم الثاني « انتخاب بطريرك ماروني » ، واما القسم الثالث فمداره على « سياحة في بادية سورية وداخليتها. » ويهمنا الآن من هذه الاقسام الثلاثة القسم الثاني ، وهو انتخاب بطريرك ماروني.

قال المؤلف : « انه منذ الناء الامارة اللبنانية بسقوط الامير بشير الكبير وانقسام الحكم بين قائمقامي مقام ، احدهما ماروني ، والآخر درزي ، اصبح البطريرك الماروني صاحب اعظم مركز في لبنان . وفيه تتمثل الملة

---

(١) كانت تدعى القطعة الحربية المذكورة لايل پول La Belle-Poule ، وهي التي كانت استحضرت جثة نابوليون الاول من جزيرة القديسة هيلانة.

المارونية ديناً وسياسةً :

ثم قال في محل آخر : « لقد مثل البطريرك يوسف حبيش دوراً عظيماً في تاريخ وطنه . لكن هذا الدور لم يكن دائماً مبنياً على معرفة مصالح طائفته الحقيقية. فقد قاده حبه المتطرف للاستقلال ، مع شفقته على آلام رعيته ، الى الثورة في سنة ١٨٤٠ على السلطة المصرية ، ومساعدة الحملة الانكليزية العثمانية. لكنه سرعان ما تبيّن له سوء عاقبة عمله . وكثيراً ما يحدث ان النفوس السريعة الاندفاع توقعها في الشر والخطأ رغبتُها في حبّ الخير ؛ ومتى ظهر لها غلطها ، فان الندامة تتخذ لديها شكل المجازاة الصارمة التي توجبها على نفسها. وعلى هذا النهج فان البطريرك يوسف حبيش لم يتسامح قط مع ذاته فاستمرّ في يأس عظيم منذ ثبت له انه لم يُدرك مصالح طائفته الحقيقية . »

وكلّ يعلم ان هذا البطريرك ، وهو مؤسس عظمة الكرسي البطريركي ، قد توفي في عنفوان امره حين بلغه سوء مصير حوادث الجنوب ، في ٢٣ ايار سنة ١٨٤٥ ، ولم يكن تجاوز الثامنة والخمسين من عمره ، بعد ان ادار شؤون الطائفة مدة ٢٢ سنة وكانت وفاته في قنوبين ودُفن هناك.

ثم اضاف المؤلف بعد عدة صفحات ، قائلاً : « لما توفي البطريرك يوسف حبيش ، كان المطارنة الموارنة متوزّعين في انحاء لبنان ، ومختلفين رأياً في ما يتعلق في محل انعقاد مجمعهم الانتخابي . فقد كان منهم في دير قنوبين ثلاثة وهم النائب الروحي[1] ، والنائب الزمني ، واسقف طرابلس[2] . ومن رأيهم وجوب عقد المجمع واجراء الانتخاب هناك وفقاً لاحكام المجمع اللبناني . ولاسيما وقد اجتمع مشايخ واعيان الجهات الشمالية ، ملحّين باجراء الانتخاب هناك ، مصرّين على منعهم عن مبارحة قنوبين ، ومعلنين بعدم اعترافهم باي انتخاب يحدث خارجاً عن قنوبين . فخاف هولاء الثلاثة على محتويات الكرسي من النهب ، اذا هم بارحوه.

١) النائب الروحي هو المطران بولس مسعد الذي سيم اسقفاً سنة ١٨٤١

٢) النائب الزمني هو المطران سمعان زوين. اما مطران طرابلس فكان يدعى بولس كساب ، سامه البطريرك يوسف حبيش اسقفاً على طرابلس خلفاً له ، منذ سنة ١٨٢٦ .

«وكان موجوداً في كسروان كلٌّ من السيد يوسف الخازن مطران الزوق[١]. وابن عمه مطران دمشق انطون الخازن[٢] ، والسيد فيلبوس حبيش ، شقيق البطريرك المتوفى ، ومطران جزين[٣] . وكانوا يرغبون اجراء الانتخاب في دير بكركي نظراً لمشقة السفر الى قنوبين ، وبسبب الظروف السياسية الحاضرة . وكان مطران صيدا يمالئهم في رغبتهم هذه[٤] .

«اما مطران عكا شرفاً الذي كان قائماً بوكالة ابرشية بيروت[٥] ، ومطران قبرس[٦] ، فانهما كانا في الظاهر يقولان باستعدادهما لاتباع رأي الاكثرية . الا انهما ، في باطن الامر ، كانا يرغبان اجراء الانتخاب في كرسي قنوبين

«وكان رئيس اساقفة اللاذقية شرفاً موجوداً في رومية[٧] .

«ولما طال امد الخلاف واستفحل الامر ، خشي القاصد الرسولي سوء النتيجة . ولما كان يعرف شخصياً قنصل فرنسة العام في بيروت (اي مؤلف الكتاب) منذ وجودهما معاً ردحاً من الزمان في اللاذقية ، فقد حرّر له يدعوه لزيارته في مركز القصادة في الزوق للمداولة في ما يجب عمله ، حسماً لهذا النزاع بين

---

١) الصواب انه مطران دمشق ، وكان يقيم في زوق مكايل لانه كان في الوقت ذاته رئيساً لدير البشارة فيها .

٢) الصواب : مطران بعلبك . واطران انطون هذا كان قد سيم اسقفاً منذ سنة ١٨٠٥ ، واستلم ابرشية بعلبك منذ سنة ١٨٠٨ ، وكان شيخ الاساقفة سناً وسيامةً .

٣) يريد به رئيس مدرسة عين ورقة ، المطران يوسف رزق من جزين ، ورئيس اساقفة قورش شرفاً .

٤) مطران صيدا كان حينئذٍ المطران عبدالله البستاني ، سيم اسقفاً منذ سنة ١٨١٩ ، فكان ثالث الاساقفة سيامة .

٥) هو المطران طوبيا عون . وكان سيم اسقفاً من يد البطريرك المتوفى في سنة ١٨٤١ ، في وقت واحد هو والسيد بولس مسعد ، والسيد فيلبوس حبيش .

٦) هو المطران يوسف جعجع أصغر الاساقفة حينئذٍ سناً وسيامة ، لانه ولد سنة ١٨٠٨ ، وسيم اسقفاً سنة ١٨٤٤ .

٧) هو المطران نقولا مراد من عرامون كسروان . سامه رئيس مجمع نشر الايمان في رومية اسقفاً سنة ١٨٤٣ . وقد نبي المؤلف ان يذكر بين الاساقفة اسم مطران حلب ، وقد كان يدعى المطران بولس اروتين ، من حلب . كان قد سيم اسقفاً منذ سنة ١٨٢٩ .

الاساقفة الموارنة . والقاصد الرسولي كان استفاناً اسباني الاصل يدعى السيد ڤيلارديل، وكان عنوان اللطف والدعة ، رخيم الصوت ، شديد التقوى والغيرة .»

فلبّى القنصل پوجاد دعوة القاصد الرسولي ، وامتطى جواده يرافقه قوّاصه وخادمه . وكان جميعهم مسلّحين وجاؤوا قرية زوق مكايل ، فوصلوا دار القصادة الرسولية ، في المحل المعروف فيها باسم التراب ، عند الغروب . فأثر في القنصل ما سمعه من قرع اجراس كنائس اديار الزوق والقرى المجاورة التي كانت اصداء الوديان تردد نغماتها . وذلك ايذاناً بحلوة التبشير عند غروب الشمس . خصوصاً وقد كان مضى عليه سنوات عديدة ، وهو محروم من سماع مثلها ، لوجوده في مدن اسلامية يمتنع على النصارى استعمال الجرس فيها .

فاستقبله القاصد بكل حفاوة . وكان عنده رئيس رسالة سورية لليسوعيين، الاب مبارك بلانشه الشهير . فقضى السهرة مع نيافة القاصد ، والرئيس اليسوعي، يتبادلون الحديث في مسألة انتخاب البطريرك، وقد تبيّن لهم ما يقوله هنا بالحرف الواحد :

« كان الرأي العام في الطائفة المارونية مجمعاً على مرشحين اثنين يعتبرهما اكثر اهلية من سواهما من الاساقفة لتسنّم المنصب البطريركي ، بعد السيد الذكر البطريرك يوسف حبيش . وهما المطران بولس اسقف طرسوس شرفاً ، الذي كان نائبه الروحي ، والسيد يوسف الخازن . ينتمي الاول الى عائلة من الفلاحين في جبل كسروان . كان قد أرسل الى رومية ، وتلقى بعض الدروس في مدرسة مجمع نشر الايمان ، ثم عاد فانهاها في مدارس الجبل . وقد كان له نفوذ عظيم جداً على البطريرك المتوفى ، وكان له حزب كثير العدد خاصة في جهات شمالي لبنان التي كان يقيم فيها البطريرك المشار اليه . اما الآخر ، اي السيد يوسف الخازن ، فهو من عائلة تُعدّ من اشهر الاسر اللبنانية . فنظراً لثروته ، ولكثرة عدد اعضاء عائلته ، ولقوة حزبه ، ونفوذ ذويه ، ووجوده على رأس ابرشية مرغوب فيها ، كان اقرب الى النجاح من مزاحمه . الا ان سكان طرابلس وجبة بشري كانوا شديدي العداوة له ، لخوفهم من هجره قنوبين اذا توصّل للبطريركية .»

وعند الصباح حضر القاصد والقنصل القداس الالهي الذي اقامه المرسل اليسوعي في معبد القصادة . وبعد ان تناولوا الطعام ، حضر لزيارة القاصد كل من السادة يوسف الخازن ، وفيلبوس حبيش ، واسقف جزين ، واسقف صيدا . فقدمهم نيافته الى حضرة القنصل . ثم اخذوا يتبادلون الحديث ، ويبدي كل منهم رأيه . فاثبت لهم السيد يوسف الخازن بان المجمع اللبناني لا يوجب حتماً اجراء الانتخاب في كرسي قنوبين . واخذوا يتباحثون في امر التوفيق بين مطاليب فريقي الاساقفة . وكان القاصد والمرسل اليسوعي يجيدان التكلم بالعربية ويتذاكران معهم بكل سهولة . اما القنصل فكان يفهم حديثهم ، ولكنه لم يكن يتكلم العربية . فكانا يقومان بالترجمة بينه وبين الاساقفة. «وكان المرسل اليسوعي مرتدياً ملابس كهنة الموارنة ، وعلى رأسه عمة سوداء مثلهم» (يقصد بذلك ما تدعوه طابية).

اخيراً اقترح القنصل عقد المجمع الانتخابي في دير ميفوق خاصة الرهبانية البلدية ، لوجوده في نقطة متوسطة المسافة بين بكركي وقنوبين . وتعهد للسادة الحاضرين بانهم اذا وافقوه وذهبوا مع الاب بلانشه الى دير ميفوق ، فانه يذهب الى كرسي قنوبين ، ويرسل لهم الاساقفة الثلاثة الموجودين هناك. فقبل جميع السادة الزائرين هذا الاقتراح ، وشكروه على غيرته.

فنهض بعد قليل ، وودّعهم عائداً مع افراد حاشيته الى بيروت ، بعد ان وعدهم بالرجوع الى زوق مكايل لزيارة السيد يوسف الخازن في دير البشارة ، في اول يوم من شهر آب سنة ١٨٤٥.

وفي الوقت المعين عاد القنصل بوجاد الى الزوق ومعه ترجمانه ، وقوّاصان ، وطاهٍ ، وعدد من المكارين . وبعد ان استراحوا يوماً عند المطران يوسف الخازن ، في دير البشارة ، سافر القنصل وحاشيته ، ومعهم السادة البستاني ، وعون ، وجبجع ، ورزق ، وانطون الخازن ، والاب بلانشه اليسوعي ، قاصدين قرية عشيت . فوصلوها مساء وحاوا ضيوفاً مكرّمين على المرحوم مخايل طوبيا زخيا الشهير ، فاحسن ملتقاهم وضيافتهم . وفي الصباح نهض السادة الاساقفة الخمسة والاب اليسوعي ، فامتطوا خيولهم وذهبوا صعوداً في

طريق دير ميفوق . وبعد ذهابهم ، نهض القنصل وحاشيته فامتطوا بدورهم خيولهم وتوجهوا في طريق الساحل نحو مدينة طرابلس .

اما السيدان يوسف الخازن ، وفيلبوس حبيش ، فقد غادرا الزوق بعد الاولين بيوم متوجهين رأساً الى دير ميفوق ، بدون ان يعرّجا على عشيت .

وهاك ما وصف به القنصل ثلاثة من الاساقفة الخمسة الذين رافقوه الى عشيت فيقول عن المطران عبدالله البستاني : « انه شيخ قصير القامة لكنه لم يزل في همة الشباب . وهو كثير النشاط ، ومحبّ المزاح . ومع تحت هذه الظواهر ، كان يختبئ طبع حديدي سخر بالمخاطر العديدة ولم يحفل بها . »

وعن المطران يوسف جعجع : « لا يختلف ظاهره عن ظاهر فلاح بسيط . فكان لاول وهلة يظهر لك كانه ساذج ، الا انه بعد قليل من التأمل كان يسحرك بلطفه وبما تراه من مخايل الذكاء على كامل هيئته . »

وعن المطران طوبيا عون : « عيناه صغيرتان لكنهما ممتلئتان لطفاً وذكاء وصدقاً . انه من اعظم الرجال الذين قابلتهم في الشرق ، لا يتكلم الا اللغة العربية ولكنّ عقله السامي جعله يُدرك النبوغ الاوروبي ... وانني قليلاً ما رأيت مجتمعاً في شخص واحد ، وبدرجة واحدة ، ما وجدته فيه من البساطة واللطف والثبات والتعقل وعزة النفس والتواضع المسيحي ! ... »

(لها بقية)